

## لتحقيق أسباب النصر في الغيبة والظهور



في القرآن الكريم، نجد أنَّ للغيب دوراً في بعض ما أعدَّه الله للمؤمنين من النصر، ولكنَّ الغيب وحده لا يحكم الحياة حسب سُنَّة الله في الكون، بل هناك غيبة يحرِّك بعض الظروف والأوضاع، ويمنح بعض القوَّة لهذه العناصر، وهذا ما لاحظناه في بداية الدعوة الإسلامية، فقد أراد الله للمسلمين أن ينتصروا في بدر، ولم تكن هناك أيَّ طروف موضوعيةٍ من خلال عناصر القوَّة في واقع المسلمين في بدر.

ففي دراستنا للقرآن، نلاحظ أنَّ المسلمين لم يدخلوا في تجربة الحرب، ولم يكن لهم من خلال ظروفهم الطبيعية الموضوعية، أي عناصر للقوَّة من الناحيتين المادية والمعنوية في الدائرة الاجتماعية، بل كان العدوُّ هو الذي يملك القوة المعنوية والمادية كلَّها. فنحن نلاحظ أنَّ قريشاً كانت سيَّدة العرب، باعتبار موقعها كراعية للبيت الحرام الذي يحجُّ إليه كلُّ الناس، وقوتها الاقتصادية من خلال رحلتي الشَّتاء والصيف، وموقعها الثقافي، إضافةً إلى ما نصلح عليه في هذه الأيام بالقوَّة السياسية، وربما يلمح الإنسان شيئاً من القوَّة العسكرية، بينما كان المسلمون الذين أسلموا مع النبيٍّ صلى الله عليه وسلم، لا يتمتَّعون بكثير من هذه الموصفات، لأنَّهم كانوا يمثلون أفراداً من مجتمع مختلفة ومتنوَّعة، وأراد الله هنا أن يدخلهم في قلب التجربة، وعندما انفتحوا على التجربة المصَّعبة،

برزت عناصر الصّف فيهم، وهذا ما عبر عنه الله سبحانه وتعالى بقوله: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ \* يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّهُمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ}. فنحن نلاحظ أنّ هؤلاء المؤمنين كانوا يجادلون النبي صلى الله عليه وسلم، حتى إن بعضهم قال: «يا رسول الله، هذه قريش ما ذلت منذ عزّت». ولكن بعضهم - وهو القلة - قالوا: «يا رسول الله، لن نقول لك كما قال قوم موسى لموسى، اذهب أنت وربّك فقاتلا إلينا هنا قaudون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين بيتك ومن خلفك».

«وَإِذْ يَعْدُكُمُ اللَّهُ إِلَهَ الْطَّائِفَةِ بِنَ أَزَّهَّا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَيْرَهُ دَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحْقِقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ»، حتّى إنهم عندما دخلوا في التجربة، تمثّلت نقاط الصّف في الاستغاثة: «إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنَّهُ يُمْدِدُكُمْ بِأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ \* وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشِّرَى لَكُمْ وَلَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُكُمْ». فما سبحانه وتعالى أعطى الغيب دوره بهذا الإيحاء، بوجود الملائكة في الساحة. ويبدو من خلال ما نستفيده من القرآن وبعض الروايات، أنّ الملائكة كانوا يمثلون قوةً معنويةً تعطي للمسلمين قوةً ماديّة، وهكذا انتصر المسلمون.

فهناك جانب من الغيب تدخل ليقوّي هذا الجانب المادي الصّف. ونلاحظ في آية أخرى، قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمْ يَأْتِكُمْ مَثَلُ الْآذِنِ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْسَطَهُمُ الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَّاءِ وَرُلُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالآذِنِ آمَدُوا مَعَهُ مَتَّى زَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ زَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ»، فالصّورة هي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه، ساروا في خط النّصر، وقطعوا شوطاً بعيداً وقتاً طويلاً، حتّى أصيروا بما يشبه الزّلال، وكادوا أن يصلوا إلى حافة اليأس، وبشّرهم الله سبحانه وتعالى بأن نصره قريب. ونلاحظ كذلك في واقعة الأحزاب، كيف أن الله سبحانه وتعالى أدخل المسلمين في التجربة الصّعبة: «وَإِذْ رَاغَتْ أَلْبَصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْجَنَّاجِرَ وَتَطُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَ \* هُنَالِكَ ابْتُلُونَ الْمُؤْمِنُونَ وَرُلُزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا \* وَإِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنَا فَقُونَ وَالآذِنِ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَادَ زَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا»، ولكن الله سبحانه وتعالى كفى المؤمنين القتال، ونصرهم بعد أن عاشوا التجربة الصّعبة.

ومن هذه اللّقطات التي تمثل نماذج يكثر أمثالها في القرآن الكريم، نخلص إلى أنَّ إِنَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ الْغَيْبَ فِي حَرْكَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ فِي خَطَّ الذَّمِيرِ، العَنْصُرُ الْوَحِيدُ، بل إنَّه يدخل المؤمنين في التجربة الصعبة، ويبتليهم، ويحرك الطاقات الكامنة في داخل مواقفهم، حتى يعطفهم الصلاة أكثر، وحتى يعيشوا التجربة بقوة وفاعلية أكبر، وحتى يُؤسِّسُوا مجتمع القويَّ الذي إذا واجهته التحدُّيات، استطاع أن يثبت إزاءها، وهذا هو سرُّ التربية القرآنية الإسلامية، التي تؤكّد للإنسان أنَّ يقدِّم كلَّ ما عنده ثم يدعوه إِنَّ، وأنَّ يأخذ بالأسباب المتاحة بين يديه، وكلَّ ما يمكن أن يحصل في حركته في الواقع، ثم يتوكّل على إِنَّ.

ولذلك، فإنَّنا نرى أنَّـ في الإسلام حركة غيب تطلُّ على حركة الواقع، بحيث ينفذ إلى الثُّغُرات الموجودة في الواقع من أجل أن يسدَّها لتكامل المسيرة، وربما تتعلّق إرادة إِنَّ بأنَّ النصر لن يتحقّق إلا بعد أن تتجاوز الأُمُّةَ كثيراً من الطُّروف الصّعبة على مستوى الأجيال، ولكن كلَّ حركة تهيئ الطُّروف الموضوعيَّة للحركة الأخرى، حتى تتكامل مع الظروف في المستقبل، ليكون الذَّمِير في نهاية المطاف.